

## رؤوف عباس: صفحات من تاريخ الوطن

الأحد، 25 سبتمبر 2011

بقلم: فاروق شوشة

شكرا لأحد رموز العلم والوطنية في مصر الدكتور محمد صابر عرب رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية علي سرعة اهتمامه بنشر هذا الكتاب الوثيقة - الذي حرره وقدم له الأستاذ عبادة كحيلة - تنشيطا وتجديدا للذاكرة المصرية، وبناء للمنهجية والعلمية والتطور في الكتابة التاريخية، وإزاحة لكثير من المفاهيم الخاطئة والسلبية والمغلوبة في النظر الي المواقف والآراء - معزولة عن سياقها التاريخي والاجتماعي والحضاري وكشفا عن الريادة والأصالة في انجاز عالم الدراسات التاريخية المؤرخ الكبير رؤوف عباس من خلال أبحاثه ودراساته - التي تضمنها هذا السفر الكبير حجما وقيمة - عن علم التاريخ والوثائق، والتاريخ الحديث والمعاصر، واليسار المصري، والإسلام السياسي، وثورة يوليو، وأمريكا والعرب، ومصر مبارك، وملف يونيل بينين.

وفي المقدمة المتميزة التي أنجزها الأستاذ عبادة عن الكتاب وصاحبه، وهو يعرض لكتابات رؤوف عباس عبر ستة عشر عاما من 1992 الي 2008، وهي بعض مما كتب، يبرز حقيقة هذا المثقف الشامل الملتزم - بتعبير سارتر - والمثقف العضوي بتعبير جرامتي، المهوم بعصره وقضايا عصره، لا يقف منها موقف المتفرج أو الراصد، وإنما هو يقف موقف الناقد أو المشارك أو هما معا.

ولقد أتيج لي في خضم من شرفت بمعرفتهم عن قرب من رموز الفكر والثقافة والعلم والإبداع: مصريين وعربا، خلال ثلاثين عاما متصلة من تقديم البرنامج التلفزيوني الأسمية الثقافية - أتيج لي أن أجلس الي رؤوف عباس متابعا فكره وثقافته الموسوعية ورؤيته التاريخية النافذة والجديدة، وكانت المناسبة التي جمعتني به وبالذكورة نلي حنا أستاذة التاريخ بالجامعة الأمريكية، ترجمته لكتابها: القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبي طافية، شاهيندر التجار، وقد ترجمه من الإنجليزية الي العربية عام 1997 في لغة شديدة الدقة والإحكام رائعة الإشراف والصفاء، لا يظن قارئها لحظة واحدة أنها ترجمة، فكان يبتسم في حياء العلماء شاكرا ومقدرا لحساسيتي في تقدير لغته العربية بهذه الدرجة، وكان هذا الكتاب - في وقته - فاتحة لإعادة رؤيتي وأفكاري عن العهد العثماني في مصر وفي العالم العربي، بعيدا عما روجه المستشرقون والمؤلفون الغربيون، وهو الأمر الذي يشيد به الأستاذ عبادة في تقديمه حين يقول: إن مؤرخنا - أي الدكتور رؤوف عباس - يعطي هذا العصر قدرا فائقا من اهتمامه، ويأتي بطرف منه، خصوصا فيما يتصل بدعاهي الإصلاح، والأهم أنه ينوه بما ساد هذا العصر من تسامح كان نسيح وحده، يحتوي مللا ونحلا، وأعرافا وثقافات، كانت جميعها متباينة. وهو الموقف الذي ذكرني بموقف عالم التراث العربي المحقق الكبير محمود شاكر في كتابه الصغير الحجم المهم محتوي وموضوعا: رسالة في الطريق الي ثقافتنا حين تحدث عن عناصر التنوير والتقدم ونماذجها في ظل الحكم العثماني الذي دأبنا علي وصفه بالعصر المتخلف والمظلم وتدني مستوي الإنتاج الأدبي نتيجة لما يشيعه المتعصبون من غلاة المؤلفين عن الدولة العثمانية - وكيف أن موقفه وهو المؤرخ يتطابق كثيرا مع موقف عالم التراث والتحقيق، وكان يستمع ويؤمن علي ما طرحته في سماحة ومشاركة واهتمام لم أجدها بهذا القدر عند من هم في مقام تلاميذه وصغار مرديده.

كذلك الإشارة الي نبوءته التي أفصح عنها في مقابلتين للصحافة والتلفزيون في مايو 2006 وأغسطس 2007، بقيام ثورة مصرية كبرى، سوف تكون إحصارا ربما يفوق في مداه اعصار تسونامي، وكيف كان يتناول بالتحليل، وبكل شجاعة، ما جري خلال السنوات الأخيرة من حكم الطاغية المخلوع من فساد لم تشهد مصر له مثيلا عبر عصورها كافة، ويعقد مقارنة بين خراب مصر كما عبر عنه مناضل روسي وفد الي بلادنا في مطالع القرن الماضي، وخراب مصر الواقع في مطالع هذا القرن، مبينا كيف أن الخراب الأخير كان أكثر فداحة من سابقه.

ولم يكتب القدر لرؤوف عباس أن يمتد به الأجل حتي يعيش معنا ونعيش معه إحصار ثورة الخامس والعشرين من يناير الذي تنبأ بحدوثه قبل ثلاث سنوات وبضعة شهور، بعد أن خاض معركته الأخيرة مع المرض اللعين منذ منتصف عام 2007 وبداية عام 2008.

شكرا لدار الكتب والوثائق القومية وهي تعيش واحدا من أزهي عصورها وأحفلها بالجدية والتطوير والانتاج، قيامها بنشر هذا الكتاب الوثيقة، الذي ليس مجرد صفحات من تاريخ الوطن كما يشير عنوانه المتواضع، وإنما هو مدخل حقيقي للوعي الصحيح بتاريخنا الحديث والمعاصر. لقد كان عباس من أبرز من هاجموا - بكل جسارة ووضوح - العصابة الحاكمة التي تحكمت في مقدرات مصر في عصر مبارك، وكيف أنها تراهن علي السلبية المشاعة بين المواطنين، فتتعامل معهم وكأنهم سوائم، بلغ الفساد الماء والغذاء والدواء ومصادر الرزق وأهدرت حقوق الإنسان، ومازالت الأمور تحت السيطرة من وجهة نظر السلطة وزبانيته، ومازالت قطعان الأمن المركزي في حظيرة الولاء للنظام، مما يجعل كلا من هؤلاء وأولئك لا يهتم الا بذاته، يتغني بعبارة أنا مالي في كل حين.

<http://www.ahram.org.eg/The-Writers/News/103104.aspx>